مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

مقاومة الزاوية الدرقاوية للاستعمار الفرنسي في الجنوب الشرقي

عبد الرزاق الصافي
أستاذ الثانوي التأهيلي
باحث الدكتوراه بكلية علوم التربية
جامعة محمد الخامس – المملكة المغربية

مُلَخّص

قامت الزوايا بأدوار تاريخية عديدة، فقد شكلت على مر التاريخ مؤسسات دينية وعلمية واجتماعية. فما إن استتب الأمن للاستعمار الفرنسي في الجزائر وتونس، حتى اتجهت أطماع هذا الاستعمار نحو المغرب، خاصةً بعد الانهزام المدوي للمغرب في معركة ايسلي عام ١٨٤٤، مما ساهم في تحرش القوات الفرنسية بالحدود المغربية، فدخل في مواجهات مسلحة معهم قامت فيه الزوايا بدور محوري ومنه الزاوية الدرقاوية بالجنوب الشرقي المغربي. وقد توصل الباحث إلى أن مقاومة أهل الجنوب الشرقي شكلت حدثًا بارزًا وحاسمًا في التاريخ المغربي المعاصر، فهي حدث يبين شدة التلاحم بين الشعب والعرش. كما أن المقاومة التي أبانت عنها هذه الزاوية التي مزجت بين الأسلوب العسكري والأسلوب الديني الجهادي، رغم محدوديتها فهي تعتبر بحق نموذج للزاوية التي لعبت عدة أدوار دينية اجتماعية وأيضًا سياسية، لما اتسمت به حركاتها الجهادية من قوة متمسكين بالعروة الوثقى بالدين الإسلامي، معتبرين الموت في سبيل الوطن جهاد يدخل للجنة.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ١٢ أكتوبر ٢٠٢٢
تاريخ قبول النشر: ١٨ نوفمبر ٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:

الزاوية الدرقاوية؛ المقاومة؛ الاحتلال؛ الجنوب الشرقي المغربي؛ تاريخ المغرب؛ تاريخ المقاومة المسلحة

معرِّف الوثيقة الرقمي:

10.21608/KAN.2022.312294

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد الرزاق الصافي. "مقاومة الزاوية الدرقاوية للاستعمار الفرنسي في الجنوب الشرقي".- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة- العدد الثامن والخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٢. ص ١٦٧ – ١٧٤.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: rrazaksafi@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورِيةُ كَان التَّارِيْخِية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةٌ

لعبت الزوايا مجموعة من الأدوار التاريخية فقد شكلت على مر التاريخ مؤسسات دينية وعلمية واجتماعية، مع العلم أن الزوايا مجال لا زال بكرا ولم يحظ بالعناية الكافية والبحث والتنقيب اللازم، "إذ لا يخفى على أحد الأدوار الحاسمة التي قامت بها هذه المؤسسات الدينية والاجتماعية في تشكيل تاريخ المغرب، فقد كان رجالات التصوف دائما في قلب المجتمع والسياسة، فطبعوا تاريخ المغرب وكانوا فاعلين في تأسيس دوله وتوجيه سياسته وثقافته وتشكيل هويته. ورغم كثرة الأبحاث والدراسات التي أنجزت حول الزوايا، فإن هذه المؤسسات لا تزال تنطوي على إغراء جذاب يثير الباحث إلى ركوب غماره للتنقيب في مفاتن هذا التاريخ" (الحادك، ٢٠١٤، ص٠٧).

ما إن استتب الأمن للاستعمار الفرنسي في الجزائر وتونس، حتى اتجهت أطماع هذا الاستعمار نحو المغرب، خاصة بعد الانهزام المدوي للمغرب في معركة ايسلي عام ١٨٤٤، إذ ما أن قامت فرنسا باحتلال الجزائر عام ١٨٣٠، حتى تبينت أطماعها في المغرب عبر قيامها بعدة مناوشات، ولعل ذلك يتضح من قول ثريا برادة؛" وقد دخل المغرب وفرنسا منذ ١٨٣٠ في اختبار قوي، حرص فيه كل منهما على تأكيد سيادته وتفوقه، وعلى إضعاف الآخر، مع تحاشي المواجهة المباشرة والشاملة. وقد بدأ المولى عبد الرحمان هذه المرحلة، بإظهار عزمه على احترام العقد السياسي الديني، فقبل بيعة أهل تلمسان، وأرسل جيشا من العبيد والودايا لتأكيد السيادة المغربية على هذه المنطقة، وأرهف السمع للتحمس الشعبي للجهاد ضد العدو الكافر، وشرع في تفقد حاميات السواحل، وفي اقتناء الأسلحة. وقدم الإعانة المادية والمعنوية للمجاهد عبد القادر وسلك سياسة "لم آمر بها ولم تسؤني مع القبائل المغربية الشرقية التي كانت تتوغل في التراب الجزائري وتغير على الجيش الفرنسي " (برادة، ص ١٩٣-١٩٤|).

لقد شكل الاحتلال الفرنسي لدولة الجزائر عام ١٨٣٠، تهديدًا مباشرًا للمغرب. فبعد أن قامت فرنسا بتوطيد نفوذها بإضعاف سلطة الأمير عبد القادر الجزائري، انصب اهتمامها على المغرب مستغلة مساندة المغاربة للأمير فقامت بالتحرش بمناطقه الشرقية، فقد" لجأت فرنسا إلى كل أنواع الضغوط ومظاهر القوة والمناورات التي ترمي إلى إضعاف المخزن وشعبيته، بإظهار عجزه أمام السكان، كإظهار السفن الحربية على السواحل المغربية، بل وبتنظيم توقفات منتظمة للسفن العابرة للبحر الأبيض المتوسط والمتوجهة للمحيط الأطلسي أمام طنجة لنشر الرعب والبلبلة. واختارت وقت الأزمات الداخلية، كثورة الودايا والغرب سنة ١٨٣١م لتوغل الجيش الفرنسي في الحدود الشرقية، وإرسال إنذارات صارمة والقيام بمناورات سياسية كمحاولة إقناع المخزن تارة بخطر شعبية عبد القادر، وأطماعه وتواطئه مع القبائل المغربية ضده، وتارة بعزمها على التحالف مع عبد القادر" (برادة، ص ١٩٤-١٩٥).

يمكن القول إن الاحتلال الذي تعرضت له الجزائر شكل تهديدًا مباشر للمغرب خاصة بعدما أبان المغرب عن رفضه منع عبد القادر الجزائري من اللجوء الى التراب المغربي، لتبدأ مرحلة العدوان الاستعماري الفرنسي على بلاد المغرب، فكانت نتيجة ذلك فرض معاهدة للامغنية عام ١٩٤٥ التي فتحت الأبواب أمام الاستعمار الفرنسي، ليظهر دور الزاوية الدرقاوية التي وقفت في وجه الاستعمار الفرنسي من خلال الدعوة الى تنظيم مقاومة القبائل.

- فما هو تاريخ تأسيس الزاوية الدرقاوية؟ أين يتجلى الانتشار الجغرافي لأفكارها ومبادئها؟
- ما موقفها من التواجد الاستعماري الفرنسي؟

أولاً: الإطار الطبيعي للجنوب الشرقي

يقع الجنوب الشرقي بين مجالي الأطلس الكبير من جهة والصحراء القاحلة من جهة أخرى، ذو أراضي منبسطة تتخللها عدة واحات، و" يتسم مناخها بالارتفاع الكبير في درجة الحرارة التي تصل الى حوالي ٥٠ درجة في فصل الصيف وشدة الفوارق الحرارية اليومية والفصلية في باقي الفصول مع قلة التساقطات المطرية. وقد شكلت هذه الظروف التضاريسية والمناخية القاسية وسيلة فعالة من الوسائل التي وظفتها قبائل المنطقة في مواجهاتها مع القوات الفرنسية لتعويض النقص الذي كانت تعانيه ماديا وعسكريا مقارنة مع الإمكانات الهائلة التي يتوفر عليها جيش الاحتلال" (الحادك، ٢٠١٤، ص ٥٩) رغم قساوة المناخ فقد تأقلمت الساكنة معه فتعاطت للزراعة على ضفاف الأودية والرعي، بالإضافة الى زراعة النخيل بالإضافة الى ما توفره لهم مواشيهم من حليب ولحوم.

ثانيًا: الإطار البشري للجنوب الشرقي

تنتشر بهذا المجال ساكنة من مختلف الانتماءات، قطاعهم الأساسي هو الفلاحة حيث يتعاطون لكسب مواشي الأغنام، والإبل، ويتميز هؤلاء السكان بنمطين في الحياة، حيث نجد منهم

من يميل الى الترحال بحثا عن الكلئ للمواشي، فخلال فصل الشتاء يتوجهون نحو الشمال، وخلال فصل الصيف يتوجهون نحو الجنوب، في ظل ندرة المياه ولعل اهم هاته القبائل سغروشن، ايت عطا، ايت إزدك، أولاد ناصر، بني مكيل (روس. إ. دان، ٢٠٠٦، ص٣٧-٣٨-٣٩)... ناهيك إن هذا المجال يتميز بوجود مجموعة من الفئات والتي تعيش داخل القصور مثل الشرفاء، المرابطون، العوام والحراطين (الحادك، ٢٠١٤، ص٦١)، وما يرافق ذلك من تراتبية اجتماعية قاسية.

ثالثًا: تأسيس الزاوية الدرقاوية وانتشارها المجالي

يُنسب الدرقاويون إلى الشريف الإدريسي سيدي محمد العربي بن احمد الدرقاوي الزروالي، وقد أسست الزاوية الدرقاوية من طرف مولاي العربي عام ١٧٨٦ والتي شكلت الزاوية الأم للزاوية الدرقاوية (Spillmann. p. 5)، وقد سعى الدرقاويون إلى إحياء التصوف الشاذلي من خلال الثورة على القيم في المجتمع المغربي، خاصة وان الزاوية الدرقاوية استفادت من التغلغل الصوفي للزوايا منذ القرن ١٦ وما توفر لديهم من رصيد اعتباري تجلى في النسب الشريف لمؤسس الزاوية وقد ساهمت في إحياء التصوف الشاذلي (Bellaire.1921. p156.)

تمكن الدرقاويون بفضل النسب الشريف لمؤسس طريقتهم أن ينتشروا بسرعة وان يستقطبوا العديد من الناس من البوادي والمدن، وهو ما يؤكده قول قاسم الحادك؛" لقد نجحت الطريقة الدرقاوية خلال فترة وجيزة في اكتساح جل مناطق المغرب واستقطاب قاعدة جماهيرية واسعة، وتمكنت بذلك من مراكمة رأسمال رمزي وشرعي كبير. كما استطاعت أن تتغلغل في أعماق مختلف شرائح المجتمع المغربي من أعيان وفئات شعبية، وان تفرض تأثيرها على الصعيدين الاجتماعي والسياسي"(الحادك، ٢٠١٤، ص١٨) وربما ذلك يعودالى كون هؤلاء الدرقاويين لم ينعزلوا في الجبال ولم يعتكفوا في الزوايا بل كانت لهم أدوار عدة سياسية واجتماعية كما أنها كانت منفتحة ومتعددة المرجعية من كتاب وسنة وسيرة السلف الصالح (الحادك، ٢٠١٤، ص١٨).

لقد استطاع زعماء الطرق الصوفية أن يثبتوا مواقعهم وأدوارهم فصار شيخ الزاوية" مرشدا روحيا وزعيما مسلما به محبوبا ومحترما ومهابا في نفس الوقت"(الزاهي، ٢٠٠٣، ٩) هذا ما جعل الدرقاويون يبسطون الهيمنة على المشهد الصوفي المغربي خلال أواخر القرن ١٨، حيث تزايد عدد اتباعها ومردييها، وهكذا أصبحت تتشكل" البنية الثقافية للمغاربة من نخب وعامة كالتالي: ثقافة العلماء هي الفقه، ثقافة المخزن هي العلوم الأدبية وثقافة الشعب هي التصوف" (Laroui A. 1993. P. 228) ، وهكذا يمكن أن نقول إن التصوف شكل ثقافة جل المغاربة إن لم نقل كلهم، حيث أصبحت شبكة المقدس تغطي كل مناطق المغرب" (الشاذلي، ١٩٨٩، ٢٦٩).

رابعًا: مقاومة منطقة الجنوب الشرقي للوجود الاستعماري

بعد التدخل الفرنسي بمنطقة الجنوب الشرقي، اتجهت أنظار الزاوية الدرقاوية الى تعبئة السكان بخطر هذا الاستعمار الذي يهدف الى الاستحواذ على خيرات وتروات المغرب، فكان أول ما دعت إليه الزاوية الدرقاوية هو الدعوة الى مقاطعة المنتوجات الأجنبية ومقاطعة كل تبادل تجاري مع الفرنسيين على الحدود، خاصة وان الفرنسيين كانوا يهدفون الى ربط علاقات تجارية مع السكان لتوسيع نفوذهم القبلي (بوكبوط، ٢٠٠٥، ص.٤٢)، إلا أن مجموعة من التجار عارضوا ذلك بغية الاستفادة من الامتيازات التي تنتج عن هذا التعامل التجاري.

الزاوية الدرقاوية أبانت عن رغبتها في مقاومة الوجود الاستعماري من خلال إصدار عدة فتاوي مستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية والتي تبين عواقب التواجد الأجنبي الاستعماري (عكاشة، ٢٠٠٣، ص. ٣٧)، وقد اكد الدرقاويون على ضرورة التصدي للمستعمر وعدم ربط علاقات معه، وفي هذا السياق أبان سيدي محمد العربي عن رغبته في المقاومة السلمية والتي تتجلى في مقاطعة المنتوجات الأجنبية ومقاطعة مختلف العلاقات التي يمكن أن تربط مع المستعمر من قريب أو بعيد فكان أن سعى أول الأمر إلى تعبئة القبائل وتقديم مختلف أشكال الرشد والنصح للقبائل لتحس بخطوة المستعمر وأهدافه الاستغلالية.

سعى الدرقاويون الى مقاومة العدوا وتجنب التعامل معه وهو ما يظهر من قول قاسم الحادك؛ "...ومقدمة البوار، الأمن من عدو الدين، وعدم المبالاة بما يفعله في أرض المسلمين، وترك التفطن إليه حتى يصير يأمر وينهي، ويمتثل أمره في سواحل أهل الإيمان والدين، ولا يتفطن وينتبه إليه حتى يتفاقم الواقع ويتسع الخرق على الراقع..." (الحادك، ٢٠١٤، ٦٩)، وفي سنة ١٨٨٥ خاطب المتعاملين تجاريا مع المستعمر وما قد يعترضهم من أخطار قائلاً؛ "إلى كل من يبلغه كتابنا هذا من جميع إخواننا المسلمين...فاعلموا أن الله تبارك وتعالى نهى جميع المسلمين وجميع المحسنين...من موالاة ومودة ومحاباة

أعدائه بأي وجه كانت الموالاة... وأعلموا أنه لم يزل يبلغنا عن المسلمين أنهم لا يزالون يطلقون لأعداء الله وأعدائهم ما أغناهم الله وقواهم به على الثبات على دينه من خيل وإبل وبارود وشياه وبهائم وثياب وصوف وغير ذلك، بعدما بلغنا أنهم قطعوا الكبريت عن المسلمين منذ زمان وكثرت علينا الأخبار والمراسلات بهذا الأمر ولم يبالوا ولم ينتبهوا ولا تفطنوا لما أصابهم. وأحزننا ذلك غاية وأكبرنا غاية" (الحادك، ٢٠١٤، ص. ٦٩).

لذلك الشيخ الدرقاوي كان يدرك تمام الإدراك أن السلطات الاستعمارية كان هدفها إقامة إمبراطورية واسعة الأطراف، لذلك فما كان منه إلا أن يجمع القبائل عليه لتقوم بالجهاد متناسية الخلافات السابقة فيما بينها، وفي هذا السياق يقول "...ولا يخلصنا ويخرجنا من عهدة الوجوب، وما أتانا به الرسول الطاهر المحبوب، سماع أخبار اجتماع أجناس الكفرة ومظاهرتهم على قتالنا، بالوعد بأنهم يد واحدة على منازلتنا: أن لا نستعد لقتالهم ولا نظهر القوة والعدة والاستعداد لمحاربتهم، إذ المتوقع منهم هو الواقع، وتحصيل للحاصل، أليست الملتان متضادتان إسلاما وكفرا؟ فلو قوتلت شيعة منهم، وبفضل الله انهزمت وانكسرت شوكتها، وقلت حدتها، ما عادت شيعة أخرى لحربنا، لنصرنا ربنا..." (الحادك، ٢٠١٤، ص٦٩).

فكانت النتيجة تلبية الأوساط القبلية نداءات الشيخ الدرقاوي مستعدة لتلبية نداء الجهاد والاستشهاد في سبيل الوطن، غير مكترثة بنداءات المخزن الرامي الى التهدئة، وهكذا تأجج الوضع بعد أن بدأت الأوساط الاستعمارية في اكتساح منطقة الجنوب الشرقي، فأبانت قبائل الجنوب الشرقي، فظهر مولاي احمد السبعي الجهاد بعد توفي الشيخ الدرقاوي، حيث تم اختياره زعيما للجهاد بعدما سار على نفس خطى سلفه سيدي محمد العربي الدرقاوي.

والجدير بالإشارة أنه لم يبدي "...تطاول الى الرئاسة، بل غاية فصده معارضة النصارى"(روس. إ. دان ص. ٢٧٠). إلا أنه سارع الى توحيد القبائل وضمان مساعدتها، لتبدأ العملية الجهادية يوم ١٦ أبريل ١٩٠٨ حيث قصدوا منطقة تسمى بالمنكوب الذي شكل مركزا عسكريا ضم حوالي ٣٠٠ خيال، متقدما "جماعات (المقاومين) نحو المعسكر مهاجمين، وجل المجاهدين رجالة ورئيسهم مولاي أحمد السبعي على بغلة قصيرة... يصيح دونكم دونكم أبواب الجنة مفتوحة. فاذا سمع هدير المدفعية تقعقع ينادي: هذه زكاريم أبواب الجنة تفتح لكم. وهكذا تقدموا حتى احتلوا المركز، وتصدع شمل العدو في اليوم الأول"(الحادك، ٢٠١٤، ص. ٨٧)، محقق النصر حيث خلفت المعركة قتل حوالي ٢٢ جندي و٩٨ جريح، ليتم احتلال المنكوب. فقد شكلت الزاوية الدرقاوية إطارًا للمقاومة القبلية (روس. إ. دان' ص٢٩٤) والتي أبانت عن شراسة كبيرة في الجهاد، إلا أنه ورغم كل ذلك اكتفوا فقط باحتلال المركز ولم يحرصوا على التخلص النهائي من هذا المستعمر الذي منحت له فرصة التفكير في الثأر منهم وإعادة الضربة لهم،" حيث تمكن جيش الاحتلال الفرنسي من استعادة زمام المبادرة، فيعد وصول إمدادات مهمة قرر الجنرال (vigy) ملاحقة المقاومين واقتفاء اثر زعيمهم مولاي احمد السبعي...فشنها عليهم حملة شعواء وصوب عليهم نارا حامية من كل التلال والأودية ...إذ جعلت المدافع تحصدهم حصد الهشيم، فكانت مصيبة عظمى وبلية كبرى على المسلمين... فتراجعت جموع المسلمين أو من بقي منهم...ولم يقفوا إلا في مدينة بوذنيب" (الحادك، ٢٠١٤، ص. ٨٨).

نتج عن المقاومة التي قادها الدرقاويون بقيادة مولاي احمد السبعي انهزام المقاومة رغم ما أبانت عنه من شراسة، وتتبعه المقاومين من طرف الجنرال الفرنسي الى أماكنهم في بوذنيب حيث هاجمهم بغثة مستغلا قوة الجيش الفرنسي عددا وعدة، فرغم الانعكاسات والخسائر التي موني بها مولاي أحمد السبعي فإن الجنرال فيكي (Vigy) اعد العدة فشكل حوالي اربع فرق عسكرية لتتبع المقاومين في مختلف المناطق، وبمجرد علم الجنرال ومن دار في فلكه بوجود المقاومين في بوذنيب باغتهم بشكل مفاجئ نجم عنه الدخول في معارك طاحنة فقد خلالها الفرنسيون حوالي خمسة عشرة شخصا فيهم اربع ضباط عسكريين، بالإضافة الى عدد كبير من الجرحى. ورغم المقاومة التي ابان عنها الدرقاويون في معركتهم الطاحنة ضد العدو الغاصب فإن المستعمر استطاع الدخول بعدما كانوا "يتساقطون تساقط الفراش على النار في أطراف المدينة وداخلها وعلى أسوارها. والمجاهدون تطير أشلاؤهم وتتفتت أمعائهم وتطوح القنابر برؤوسهم"(بن لحسن، ص٤٠٣).

بعد الذي فعله المستعمر تشتت المقاومة خاصةً أن العديد من الناس خضعوا للاستعمار وقبلوا به بعد الانهزام الذي حصل لمقاومتهم، وأمام ذلك أحس الفرنسيون المغتصبون للأرض والدماء بنشوة النصر وبالابتهاج العظيم، بل وتوجهت أطماعهم الى تافيلالت وزيز بل والى مناطق أخرى.

يمكن القول إن الشيخ مولاي احمد السبعي الدرقاوي تميز بمقاومة دينية حماسية جهادية ضد العدو الكافر بأسلحة بسيطة، وهو الذي يجعلنا نقول إن الحماس والخطط البسيطة،" والقيادة الروحية (المستمدة من الله)، وحدها لا

تستطيع تعويض غياب الأسلحة الحديثة والذخيرة، والتجهيزات الفعالة والانضباط العسكري، والتنظيم المحكم، والتي تتوفر كلها لدى الطرف الفرنسي." (روس. إ. دان، ص. ٢٣٥) فالحماس وحده لا يكفي لتحقيق النصر، بل لا بد من تخيط محكم وأسلحة فعالة وحماس لا متناهي.

أن المتفحص لأطوار هذه المقاومة الدرقاوية يدرك بما لا يدع مجالاً للشك أن الشيخ الدرقاوي مولاي احمد السبعي، لم يتخذ رؤية واضحة للمواجهات العسكرية مع العدو وهو ما حال وتحقيق النصر، فالخطط الحربية لا تتماشى مع الطرق الحديثة للحرب، حيث كان مولاي احمد السبعي يرسل رسائل الى الفرنسيين يدعوهم فيها الى مغادرة البلاد أو الدخول في الإسلام، وهو ما يتضح من قول قاسم الحادك؛" ...اعلموا أنكم أسأتم الى ضعفاء المسلمين وتسببتم في معاناتهم منذ مجيئكم إلى الصحراء وواصلتم غزوكم لبلادهم، إن المقاتلين المسلمين الشجعان قادمون لتدميركم، اخرجوا من ثكناتكم واختاروا الزمان والمكان المناسبين لملاقاتهم إن كنتم أقوياء..." (الحادك، ٢٠١٤، الهامش، ص. ٩١)، مما يبين أن الدرقاويين كانوا يحاولون السير على نهج الصحابة في القتال زمن الفتوحات الإسلامية عندما كانوا يضعون القبائل بين اختيارين إما الإسلام أو الحرب، وفي هذا الأمر استهانة بقوة العدو العسكرية وتفكير تقليدي، في حين أن الذي كان عليهم فعله هو اللجوء إلى حرب المباغتة أو كما كان يفعل محمد بن عبد الكريم الخطابي حيث يعتبر احد روافد نهوض الحركة الوطنية المغربية الحديثة التي مهدت لظهور وعي جديد يكرس ضرورة النضال بكل الوسائل من اجل التحرر من السيطرة الاستعمارية (مولر، ١٩٩٦، ص. ٢). هذا الرجل الهادئ والبسيط الذي تلقى العلوم الفقهية ليهيئ نفسه للمساهمة في بناء حياة يكتنفها السلم والعدل. قاد أهل الريف الذين لا يعرفون الاستسلام فقد هجم الإسبانيون بـ ١٢٠٠٠ رجل بجبال مرموشة ومن اجل أن يحصل الخطابي على السلاح كان يتسلل الى المعسكرات التي يحاصرونها ولعل ذلك يتضح من قول الأمير. فحينما يقال له من أين تأتي بالسلاح لكي نخوض الحرب، يقول إن السلاح موجود عند العدو وما على المرء إلا أن يسعى لأخذه (العربي، ٢٠٠٢، ص. ٩). وفي هذا الإطار استطاع محمد بن عبد الكريم الخطابي أن ينتصر في" إدهار أوبران" وغنم العديد من الأسلحة قدرتها المصادر التاريخية بحوالي ٤٠٠ بندقية، و٦٠٠٠ خرطوشة، و٤ بنادق رشاشة وبطارية متنقلة وقذائف ومدفع، بالإضافة الى المواد الغذائية والأدوية، في حين أن العدو فقد مئات الجنود فانتشر خبر استرجاع ظهر أبران وجاءت القبائل الريفية المترددة عند محمد تطلب المحاربة بجانبه. هكذا استطاع الزعيم الريفي أن يجعل في خدمته ثلاثة آلاف رجل مستعدين لكل شيء وذلك خلال بضعة أسابيع (العلمي، بدون تاريخ، ص. ٢٢).

فالدرقاويون بزعامة الشيخ مولاي أحمد السبعي، أرادوا أن يضيفوا الطابع الديني الإسلامي على حركة الجهاد، في سبيل تحرير الوطن أو نيل جنات الخلد، باعتبارهم ينطلقون من مرجعية دينية أساسها القران الكريم والسنة النبوية، في حين الذي كان يجب فعله والقيام به هو التخطيط المحكم والجيد ومباغتة العدوا حتى لا يجد فرصة لينظم نفسه فيها، فيتحقق النصر، فإعلامه بالمعركة وإعطائه خيارات يجعل ينظم نفسه ويستعد جيدا خاصة وانه يملك أسلحة متطورة تفوق بكثير أسلحة سكان منطقة الجنوب الشرقي المتميزة بتقليديتها، فاذا اردنا إعطاء بعض الأمثلة، فيمكن أن نقول أن معركة بو ذنيب على سبيل المثل لا الحصر شارك فيها حوالي ٥٠٠٠ من المشاة وحوالي ٧٠٠ من الخيالة، في حين العدوا يملك كتيبة واحدة وبطارية من عيار ٧٥، كما أن معارك بوذنيب خلال شتنبر ١٩٠٨، شارك فيها حوالي ٢٠٠٠ أو ١٥٠٠ رجل وعدد قليل من الخيالة، في حين المستعمر الفرنسي كانت له إمكانيات مهمة تمثلت في ١٣ سرية، كتيبتان، فيلقان من القناصة الأفارقة، فرقة من الكوم، بطاريتان من عيار ٧٥، فيصل مدجج بالرشاشات (الحادك، ٢٠١٤، ص. ٩٢).

مجمل القول، مقاومة شيوخ الزاوية الدرقاوية انطلقت من مرجعية دينية إسلامية بإمكانيات قليلة وضعيفة وبتخطيط تقليدي، في مقابل عدوا له من الإمكانيات المهمة العسكرية والبشرية ما جعله يحقق النصر، إلا أن الشيخ مولاي احمد السبعي أضاف أمرًا جميلاً وجيدًا وهو أنه دعى القبائل الى الاتحاد لان في الاتحاد قوة، والدليل على ذلك أنه استطاع أن يجمع عليه حوالي ٥٠٠٠ رجل، إلا أن "الانتكاسات المتتالة التي لحقت بعملياته الجهادية كانت لها تداعيات كبيرة، فقد أقنعت قبائل المنطقة باستحالة مواجهة القوات الفرنسية، وانتهت بتدعيم الوجود العسكري الفرنسي في المنطقة واجتياحه مناطق شاسعة من جهة، وألحقت أذى كبيرا بالمستقبل الجهادي للشيخ السبعي وأبانت للقبائل بأن بركة الشيخ الدرقاوي لا يمكنها رد الغزو العسكري الفرنسي من جهة أخرى. وهو ما أدخل المنطقة في مرحلة من السكون توقفت خلالها عن كل عمل جهادي طيلة ثمان سنوات قبل أن تستعيد نشاطها الجهادي سنة ١٩١٦" (الحادك، ٢٠١٤، ص. ٩٣).

في السياق نفسه، برز المقاوم التوزونيني وهو المزداد عام ١٨٧٣ من قبيلة أقا السوسية، ينتمي الى أسرة فقيرة اضطرت إلى العمل في الفلاحة بمنطقة تافراوت، وبعد لقائه لبعض اتباع زاوية إليغ تأثر بهم وبمذهبهم التصوفي وبنمط عيشهم وبسهولة كسبهم لقوتهم من غير "كد إلا أذكارا بموالاة وحمل السبح الذي هو أخف من حمل القفاف في المساحي"(السوسي، ١٩٦١، ص٣٦٤).

تمكن التوزونيني من الانخراط ماديا ومعنويا لباسا ومظهرا في حياة التصوف، إلا أنه سرعان ما أصبحت لديه طموحات في السلطة وشارك الى جانب احمد الهيبة عام ١٩١٢ مما مكنه من التعرف على الوسط السلطوي، "فازدادت ثقته بنفسه وشحذت طموحاته السياسية، بعدما تبين له أن الهيبة الذي استطاع تزعم هذا الكم الكبير من الناس ليس إلا ذاك الرجل البسيط الوديع السالم للناس، وأن الوصول إلى السلطة لا يتطلب صفات شخصية وخصائص خارقة وهو الذي لا يتعدى تحصيله العلمي حفظ بعض سور القرآن الكريم، فترجع إليه أمانيه القديمة وآماله التي جعلها نصب عينه... وهو يعرف من نفسه من البسالة والإقدام، ورباطة الجأش والاستهانة بإراقة الدماء ما لم يكن له أثر من الهيبة" (الحادك، ٢٠١٤، ٩٦).

بعد رجوع التوزونيني الى سوس دخل في عالم التصوف يجول ويمشي حيث شاء بلباسه وسبحته وأذكاره وبعدما تبين بانه يتطلع الى التدخل في شؤون القبيلة استاء منه شيوخ الزاوية وقرروا طرده فتوجه الى بلاد دادس جنوب تافيلالت حيث أبان عن رغباته ومشاريعه السياسية بعدما تقرب من الدرقاويين متشبعا بمبادئهم وأفكارهم ملتزما الصمت "لا يتكلم حتى بالتحية ويبتعد من العلماء، وله سبحتان في عنقه غليظة ورقيقة"(السوسي، ١٩٦١، ص٢٧٢).

بعدما تبين للتوزونيني أن الظروف مواتية للإعلان عن أفكاره وتوجهاته، وفي إطار أسلوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجدت أفكاره صدى وقبولا من طرف عدد لا يستهان به من الناس العطاويين المنتسبين الى قبائل آيت عطا، لأنهم "يصغون إلى مثل هذا الحديث، لأن باب تافيلالت التي يتخذونها مسرحا لأطماعهم وميدانا لأدوار ظلمهم قد انسد دونهم"(السوسي، ١٩٦١، ص٣٦٦).

مع بداية القرن العشرين وخاصة خلال العقد الثاني منه استطاع التوزونيني "تعبئة قبائل آيت عطا وتحقيق المصالحة بين مختلف فخاذاتها التي سارعت إلى تناسي أحقادها، وعقد العديد من الهدنات وانتخاب شيخ للحرب يوم ١٧ فبراير ١٩١٨م.

وقد اعتبر الفرنسيون تحالف آيت عطا وآيت مرغاد وتجاوزهم لصراعاتهم حدثا استثنائيا في تاريخ المنطقة بين لهم أنه من غير المفيد الاعتماد كثيرا على التناقضات القبلية للسيطرة على المنطقة في الوقت الذي يعمل فيه التهديد الخارجي أو الأجنبي على خلق الوحدة بين هذه المجموعات القبلية المتصارعة" (الحادك، ٢٠١٤، ص٩٨).

شرع التوزونيني في حركته الدعائية الجهادية، وكان أول ما فكر فيه هو اغتيال الضابط الترجمان (Oustry) الذي كان عنيفا في تعامله مع الناس، "لكن كيف يمكن للتوزونيني تدبير وتنفيذ عملية اغتيال الضابط الفرنسي المحصن في تافيلالت وسط قواته! لا شك أن زعيم الحركة أدرك صعوبة القيام بهذه العملية الخطيرة والحساسة، فأدنى خطأ سيعرض هذه العملية للفشل، وسيضع ادعاءاته موضع شك وريبة أمام أعين الناس التي طال انتظارها للنصر الموعود، وهو الذي يثير بأن الفتح قد قرب طلوعه وأن نصر الله على وشك الظهور. ووعيا منه بخطورة هذه العملية وأن كل هفوة في مسار تنفيذها سيجعل طموحاته وآماله في مهب الريح، أحاط التوزونيني مسلسل التخطيط بسرية تامة، فأسند مهمة تنفيذها لشخص من حراطين يدعى لحو أو عبد الدايم"(الحادك، ٢٠١٤، ص١٠٠).

استطاع التوزونيني تهيئ المكلف بتنفيذ العملية على المستوى النفسي بشكل جيد، "ويورد محمد المختار السوسي في المعسول نقلا عن المهدي الناصري تفاصيل هذه العملية قائلا: توجه الحرطاني فاتصل بالحاكم في مكتبه فأعطاه رسالتين فقرأ الأولى وكانت تشتمل على الثناء عليه فاستبشر. ثم اشتغل باستخراج الثانية من غلافها، فإذا بالحرطاني يغمد فيه خنجره، فقامت الهيعة من الأعوان ومن زوج الحاكم فتبعوا الحرطاني ثم لم يظفروا به إلا بعد جهد جاهد. وبعد أن قتل وجرح آخرين، رماه طبيب برصاصة قضت عليه بعد أن نطق بالشهادتين جهرا" (الحادك، ٢٠١٤، ص١٠٠).

بعد هذا الاغتيال تمكن التوزونيني من نشر فكره وأهدافه في الأسواق والمتمثلة في الالتفاف حوله لطرد المستعمر الفرنسي من مجال تافيلالت، وأمام الروح المعنوية التي عادت لناس تافيلالت بعدما اغتيل الضابط الفرنسي، التفت حوله قبائل المنطقة وانضافت إليها قبائل أخرى من المناطق المجاورة، "وخصوصا الزعيم القبلي والديني الدرقاوي الشيخ سيدي علي الهواري الذي انضم إلى حركة المقاومة على رأس قبائل آيت مرغاد وآيت حديدو التي كانت ترى في البعثة لفرنسية المتمركزة في تافيلالت تهديدًا مباشرًا لمصالحها

الاقتصادية. ولمواجهة هذا الغليان الكبير الذي أصبحت تعيشه منطقة الجنوب الشرقي ككل، باشرت القوات الفرنسية بقيادة دوري جولة في تافيلالت بهدف التصدي لهذه الاضطرابات والحد من تداعياتها، وقد عبأ لهذه العملية تسع كتائب ومجموعتين للأجنحة وست رشاشات وفيلق من السباهي وبطارية من عيار ٦٥"(الحادك، ٢٠١٤، ص١٠١).

في الوقت الذي كانت فيه الوحدة المتنقلة تعد العدة لشن هجوم على المقاومين، قامت احدى الفرق العسكرية بالتوغل في غابات النخيل بهدف الالتفاف حول المقاومين والتمكن منهم لكن قدرة الله فالمقاومين الذين كان عددهم لا يتجاوز حوالي ٢٠٠٠ رجل، استطاعوا الانقضاض على العسكر الفرنسي وتكبيده خسائر فادحة مستغلين معرفتهم بالمجال ومستغلين عجز سلطات الاحتلال عن استعمال سلاح المدفعية في وسط غابات النخيل المتميزة أراضيها بالوعورة واستطاعوا بفضل قوتهم والقوة التي منحتهم طبيعة التضاريس والمناخ السائدة بمجالهم الانتصار على العدو الغاشم الذي عاد منكسرا مهزوما مهزوزا يجر ذيول الخيبة حيث قدر عدد القتلى بحوالي ٢٣٨ قتيل، و٦٨ جريح. لذلك فقد شكلت هذه المعركة هزيمة نكراء شنعاء لسلطات الاحتلال الفرنسي.

"وقد شكلت معركة البطحاء، التي انتهت بانتصار قوات التوزونيني ونجاحها في تكبيد القوات الفرنسية خسائر كبيرة بشرية ومادية، فرصة لإعادة الاعتبار للحركة الدرقاوية الجهادية التي أرسى دعائمها الشيخ سيدي محمد العربي ومولاي أحمد أو الحسن السبعي، والتي تراجعت حدتها بعد الانتكاسات التي مني بها هذا التيار الجهادي المرتكز على الخطاب الديني الصوفي خصوصا بعد سقوط بوذنيب، مما أفسح المجال لحركات المقاومة التي تزعمها قواد مخزنيون وقبليون خبروا الحروب المخزنية والقبلية وراكموا تجارب عسكرية أهلتهم لتحقيق العديد من الإنجازات العسكرية أمثال موحى أوحمو وموحى وسعيد والتوزونيني والنكادي..."(الحادك، ٢٠١٤، ص١٠٢).

انتصار التوزونيني يبين شدة ذكائه في استغلال السمعة التي كانت تحظى بها الزاوية الدرقاوية والنفوذ الروحي للرجال الدرقاويين تحقيق الانتصار مستغلا حماس القبائل واتجاهها صوب الحرية والاستقلال ولعل ذلك ما يفسر إقبال الناس عليه، بل وأصبح يبلقب بمولاي محمد.

"استطاعت حركة المقاومة بعد انتصارها في معركة كاوز إرغام ما تبقى من الوحدة المتنقلة بقيادة دوري على التراجع والانسحاب من المنطقة والتحصن في منطقة البرج في انتظار قدوم الإمدادات العسكرية. وقد أدرك الجنرال ليوطي الخطوة التي تشكلها تلك الأحداث على مستقبل الفرنسيين في المنطقة، وعبر عن تخوفه من اتساع رقعتها وتحولها إلى ثورة شاملة في كل الجنوب الشرقي، فقرر تعبئة أقصى ما يمكن من القوات لوضع حد لهذه الحركة. وبغية تسهيل عمليات تموين المنطقة وضمان سرعتها وفعاليتها قرر إلحاق المنطقة بجهة مكناس وجعلها تحت قيادة الجنرال بويميرو الذي تكلف بالإشراف على العمليات العسكرية لتحرير مركز تيغمرت المحاصر"(الحادك، ٢٠١٤، ص١٠٣).

خَاتِمَةٌ

يستنتج مما سبق أن مقاومة أهل الجنوب الشرقي شكلت حدثًا بارزًا وحاسمًا في التاريخ المغربي المعاصر، فهي حدث يبين شدة التلاحم بين الشعب والعرش، جاءت نتيجة لمجموعة من العوامل المتمثلة في الاستغلال، والتي ساهمت من دون شك في الدفع بشيوخ الزاوية الدرقاوية سواء سيدي محمد العربي بن أحمد الدرقاوي الزروالي أو مولاي الشيخ احمد السبعي أو التوزونيني إلى الجهاد في سبيل الحرية والاستقلال، منتزعين شرعية وأحقية هذه المقاومة التي أبانت عنها هذه الزاوية التي مزجت بين الأسلوب العسكري والأسلوب الديني الجهادي، رغم محدوديتها فهي تعتبر بحق نموذج للزاوية التي لعبت عدة أدوار دينية اجتماعية وأيضًا سياسية، لما اتسمت به حركاتها الجهادية من قوة متمسكين بالعروة الوثقى بالدين الإسلامي، معتبرين الموت في سبيل الوطن جهاد يدخل للجنة وإنها لحقيقة عظمى أن العديد من هؤلاء المقاومين من مختلف ربوع المغرب من شماله وجنوبه من شرقه وغربه أبانوا عن مقاومات وليست مقاومة واحدة تبين أهمية التضحية في سبيل الوطن، الأرض التي تشكل الأم الثانية ومَنْ منا يستطيع العيش بدون أمه، لذلك تسارعت أصوات الجهاد بدعوة من الزاوية الدرقاوية ومن دار في فلكها من الاتباع الذين كانوا يوجهون الناس وينصحونهم بخطورة المستعمر وبضرورة بذل الجهود لتحرير الوطن والإنسان المغربي عامةً من جبروت الاستعمار.

المصادر والمراجع:

١-باللغة العربية:

- ثريا برادة. الجيش المغربي وتطوره في القرن ١٩، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط سلسلة رسائل وطروحات رقم٣٧.
- نور الدين الزاهي، الزاوية والحزب: الإسلام السياسي في المجتمع المغربي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٣.
- عبد اللطيف الشاذلي، التصوف والمجتمع، نماذج من القرن العاشر الهجري، منشورات جامعة الحسن الثاني، مطابع سلا، سلا ١٩٨٩.
- قاسم الحادك، جوانب من مواقف الزوايا الدرقاوية من الاحتلال الفرنسي ١٨٨١-١٩٣٢، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الطبعة الأولى ٢٠١٤.
- روس. إ. دان، المجتمع والمقاومة في الجنوب الشرقي المغربي المواجهة المغربية للإمبريالية الفرنسية ١٨٨١-١٩١٢، ترجمة احمد بو حسن، مراجعة عبد الأحد السبتي، منشورات زاوية، مطبعة المعارف الجديدة الرباط، الطبعة ٢٠٠٦.
- بوكبوط محمد، مقاومة الهوامش الصحراوية للاستعمار ١٨٣٠-١٩٣٨ صفحات مجهولة من صمود قبائل التخوم الشرقية من تافيلالت الى واد نون، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ٢٠٠٥.
- برحاب عكاشة، فكيك باب المغرب، مراسلات مختارة مغربية وفرنسية، دار أبي رقراق، الرباط، ٢٠٠٣.
- ورولف دييتر كونو دستر مولر، الغازات السامة بالمغرب، عبد الكريم في مواجهة السلاح الكميائي، ترجمة عبد العالي الأمراني الطبعة الأولى، الرباط ١٩٩٦.
- المساري محمد العربي، محمد عبد الكريم الخطابي من القبيلة الى الوطن، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، البيضاء ٢٠٠٢.
- محمد العلمي، زعيم الريف محمد بن عبد الكريم الخطابي، منشورات الأطلسي، الطبعة الثانية، البيضاء، بدون تاريخ.

٢-باللغة الفرنسية:

- Spillmann Lieutenant, Etude inédite sur Les Confréries religieuses au Maroc, C.H.E.A.M.
- Michaux Bellaire, Essai sur L'histoire des confréries Marocaines, in Hesperise, 1921. Hammoudi A, sainteté Pouvoir et socitété, Annales, Economies, Sociétés et Civilisation, n 34,
- Laroui A, Les origines sociales et culturelles du nationlisme marocain : 1830-1912, Centre Culturel Arabe, Casablanca, 1993.